حياة الشيخ
أحمد بن محمد بن حسين بن رزق

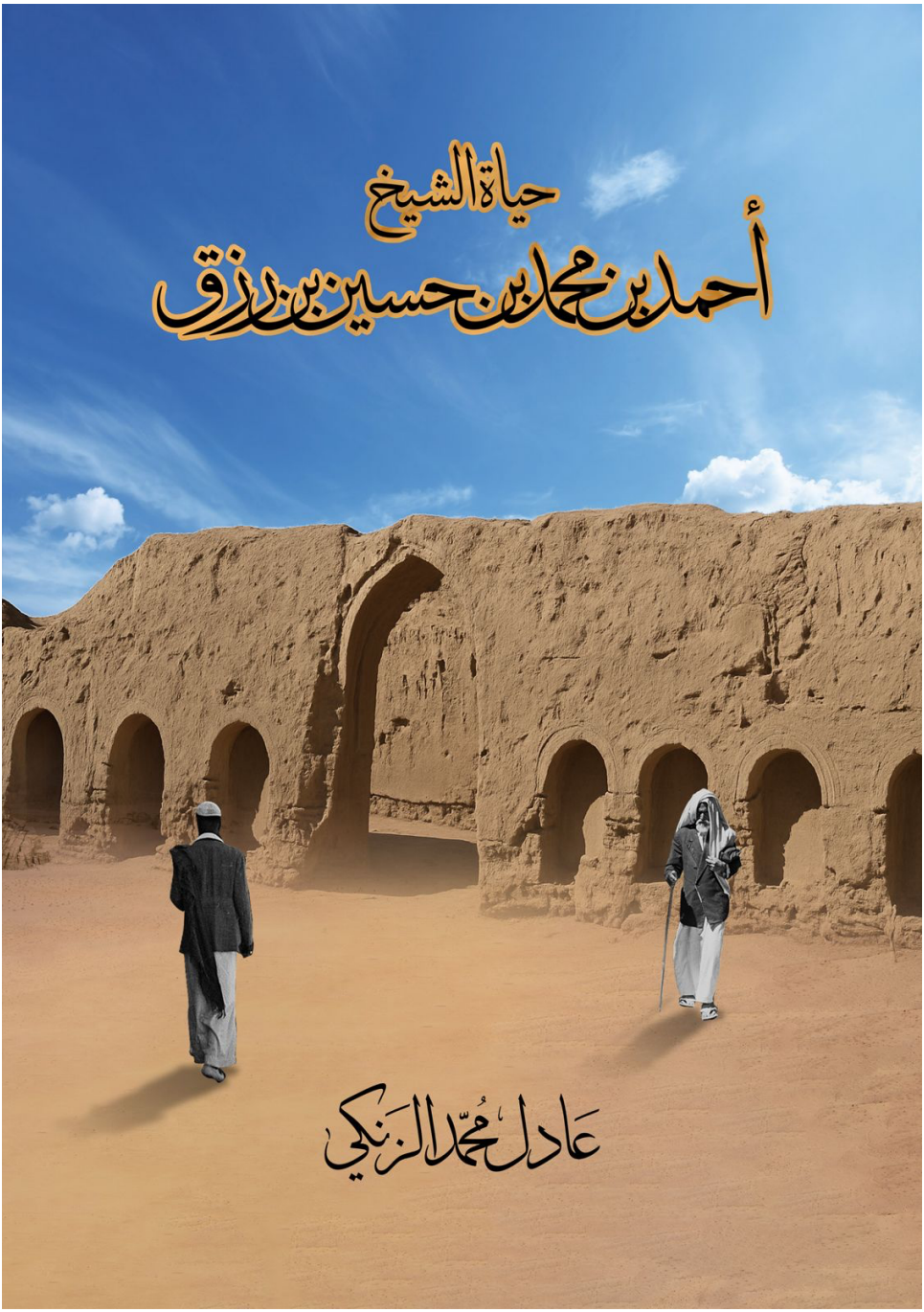

عادل محمد الزنكي

المقدمة

حُفِظَتْ حدود الكويت قديماً أيام الشيخ مبارك الصباح رحمه الله، وفقاً لما رواه الشيخ عبدالعزيز الرشيد في كتابه قائلاً: رأت الحكومة العثمانية بعد فشلها في حملاتها المتنوعة على الكويت، أن تقطع من حدودها تضييقاً على عدوها مبارك وعلى بلدته، فأقامت نقطاً عسكرية في بوبيان وأم قصر وصفوان، في آخر سنة 1319هـ (1901م)، ولكن مباركاً هب للدفاع عنها، وادعي أن تلك الأماكن داخلة في حدود الكويت، وأن له حججاً وبراهين فالقصر الذي في أم قصر لم يبنه إلا ابن رزق في أيام جابر آل الصباح وابن رزق وهو من رجال الكويت المشهورين، الذين لهم فيها اليوم آثار وأقارب"

وهذا رد واضح من الشيخ مبارك الصباح على من يدعي بأن أسرة أحمد بن رزق قد أنقطع نسلها في سنة الطاعون في عام 1831م، ويؤكد بأن لهم أقارب وآثاراً في الكويت، والذي يعتبر امتداداً لأسرة بن حجي (آل الزنكي) في العصر الحديث.

حياة الشيخ أحمد بن محمد بن حسين بن رزق (1756/ 1809) م

شخصية ظهرت وذاع صيتها، وكثر خيرها، وعم فضلها، غاصت في الأعماق أصولها، واشرأبت نفسها بالعزة والأنفة والكبرياء، عوملت معاملة كبار الحكام في منطقة الخليج العربي، وامتلكت الكثير من الثروات التي لم يمتلكها الكثير من رجالات الخليج في تلك الفترة، ولعبت أدوارا مهمة في صياغة وتشكيل تاريخ منطقة الخليج العربي، ما جعل كل دولة من دول الخليج تحاول أن تنسبه إليها، على اعتبار أنه إحدى رعاياها.

وهذا أمر يدفع إلى التساؤل، ويثير في نفوسنا الكثير من الفضول والرغبة في التعرف عن كثب عن هذه الشخصية، لعلنا نجد أجوبة للعديد من التساؤلات التي طرأت على أذهاننا ، إنها شخصية الشيخ أحمد بن محمد بن رزق (1809/1756م)، التاجر الكبير، والمحسن

الشـهير، فشخصـيته غيـر عاديـة علـى جميـع المقاييس والأصعدة، فقد اشتهر بالبذل والجود والخير والإحسان إلى الفقراء والمحتاجين، كما عرف عنه تعمير عدد من القرى والمناطق في عدة نواح من جزيرة العرب، وتبرع لحفر العديد من الآبار والبرك الكبيرة لتخزين المياه، وعمر بها المساجد، وبنى الحصون والقصور، ورفع البنيان بفضله وإحسانه وجوده قد عم العديد من الدول التي نزل وعاش فيها.

ذاع صيت الشيخ أحمد بن محمد بن زرق في كل البلاد، كيف لا وهو من تميز بذكاء وكرم ودهاء وسياسة منقطعة النظير، حتى فاق كل أقرانه في عصره، وبلغ مبلغ الملوك والعلماء والأدباء، وأصبح يقصده القاصي والداني، وصدق ابن سند حين وصفه فقال : (قطب تدور عليه أفلاك المطالع)، فصار من أشهر رجالات الدولة في القرن الثامن عشر، ومن المرجح أن الشيخ محمد بن حسين بن رزق وابنه أحمد ،

همـا أول مـن اسـتخدما السـفن الكبيـرة للسـفر بالكويت.

وإن المتتبـع لنشـاط الشـيخ أحمـد بـن محمـد بـن رزق الاقتصادي، يجد أنه صاحب نشاط تجاري في المقام الأول، سـواء فـي تجـارة اللؤلـؤ، التـي اعتبر هو المتحكم في سوقها فـي منطقـة الخلـيج العربي، حتى إنه في يوم من الأيام اشترى جميع المحصول مـن اللؤلـؤ مـن قطـر، وفـي البحـرين اعتبـر هـو المـتحكم فـي سـوقها، وكـان صـاحب إطلالة علـى الأسـواق العالميـة فـي الهنـد بصـفة خاصة، وكذلك امتلاكه للعديد من السفن الكبيرة، التي كانت تجوب البحـار فـي عمليـة نقـل السـلع والمنتجـات بـين دول الخلـيج العربـي بعضـها وبعض، وبين منطقـة الخلـيج العربـي والمنـاطق المجاورة لها في بلاد فارس، وبلاد الهند.

هذا الشكل الاقتصادي المرتبط بمصـالح تجاريـة مع تلك الدول، جعله شـديد الحـرص علـى تنميـة علاقات الود مع القوى السياسية المحيطة به فـي

منطقة الخليج العربي، وذلك بهدف حماية تجارته في المقام الأول، والعمل على تنميتها.
كما أن التنقلات الكثيرة التي قام بها الشيخ أحمد بن محمد بن رزق مع والده، بين الكويت والأحساء، والزبارة في قطر، وجو في البحرين، وجردلان في البصرة، تجعل من الضروري - بل ومن المهم - جدا تتبع علاقته مع القوى السياسية؛ حيث لم تكن تتم تلك التنقلات عشوائيا، وإن كانت تتم أغلب أحوالها تحت وطأة ظروف خارجية، كانت تدفعه نحو التنقل والترحال قد تصل إلى اتخاذ قواعد له في كل المناطق التي تنقل فيما بينها، وهو أمر مثيرة للحيرة، ويطرح العديد من التساؤلات حول طبيعة دور تلك الشخصية في تاريخ المنطقة، حيث كانت المنطقة تمر بمرحلة غاية في الخطورة وقتها، خاصة فيما يتعلق بتكوين الدول الحديثة في الخليج العربي، وفي علاقة المنطقة بالقوى الإقليمية والعالمية.

وهنا نقف أمام أسرة محمد بن حسين بن رزق وابنه أحمد لنعرف تاريخهم، وتاريخ عائلتهم العريقة الثرية الطيبة، التي تحب فعل الخيرات والتعمير في أرض الله.

تنحدر أسرة الشيخ أحمد بن رزق من قبيلة الخوالد من الجبور، وسكنت مدينة الحريملة من نجد، ثم انتقلت إلى بلد الغاط في قرية الحريق جنوب مدينة الرياض.

هاجرت تلك الأسرة مثل باقي الأسر النجدية إلى المناطق المجاورة نتيجة للظروف الاقتصادية التي ألمت بالمنطقة مع بداية القرن الثامن عشر الميلادي، واتجه والد الشيخ أحمد بن رزق نحو الكويت، تلك البلدة المطلة على ساحل بحر العدان، والتي لم تعمر قبل ورود أبيه العظيم الشأن إلا ببرهة من الزمان.

بدأ الشيخ محمد بن رزق في تجارة اللؤلؤ، الذي أطلق عليه فيما بعد لقب بن رزق، لأنه كان مرزوقاً من الله؛ فكان الله يمن عليه بالرزق

الـوفير. وحـين وفاتـه قـدرت ثروتـه بـألف ألـف ومائة ألف ريال. وفي أثنـاء تواجـد الشـيخ محمـد بـن حسـين بـن رزق فـي الكويـت مـع منتصـف القرن الثامن عشر الميلادي، بنى لـه بيتًـا بـارزًا شامخًا، وجلب له الأبواب والشبابيك بالكامل مـن الهنـد، وأدخـل فـي عمـل الأبـواب والشـبابيك النحـاس، وكـان مـن ثلاثـة أدوار، ولـيس كبـاقي منازل أهل الكويت، والتي كانت تتكون مـن دور واحد؛ لذلك أطلق عليه قصر ابن رزق.

ورزقـه الله بابنـه الوحيـد أحمـد بـن رزق، الـذي غذاه بصفات الكـرم والجـود منـذ الصـغر، حتـى ذكر عنه فـي أيـام شـبابه، أنـه جلـس مـع الأولاد عندما كان عمره عشر سـنين، فبـرز لـه معاشـر في صورة شاعر، فأنشده من منظوم تلك البلـدة؛ ليعلم بذلك قدره، وعندما أكمل ما عنده، قـام إليـه وكساه برده فأثنى على الغـلام، ودار حـول ذلـك جدل، وبدأ الخبر ينتشر فـي الآفـاق، ولمـا أخبـر أبو الشيخ محمد بن رزق استبشر ، وقال : لابني شأن كبيـر سـيظهر فـي القريـب العاجـل، ثـم لـم

تمـض إلا أيـام قصـيرة مـن الزمـان، حتـى أخـذ يبتاع الجواهر استعانة بذلك على المـأثور، وهـو مكفول بأبيه، مختـال بالـدلال بـين ذويـه ملحـوظ بلواحظ الإكرام، من الخاص والعـام، مشـار إليـه بالأصـابع، معـروف بكـريم الصـناع، مـألوف بظريـف الطبـاع، ملقيـة إليـه المعـالي بعنانهـا، ناظرة إليه بإنسان أعيانها.

وكان الشيخ محمد بن رزق من أهل المشورة في الكويت، يرجع إليـه فـي الأمـور، ويستشـار مـن الجميـع، فيشـير دائمـا بمـا هـو أوفـق؛ لرجاحـة فكره، وثقابة رأيـه، وسـداد مقولتـه، وقـد عُـرف بصنع الخير، وبذل المعروف؛ فسـعى إلـى بنـاء أعمـال الخيـر لأهـل هـذه المدينـة، وبنـى الشـيخ محمـد بـن حسـين بـن رزق مسـجدًا يطلـق عليـه الآن مسجد السوق الكبير.

دائرة أوقاف الكويت العامة (السوق) أسس هذا المسجد محمد بن حسين بن رزق سنة 1169هـ جدد بناءه يوسف آل صقر بمعاونة بعض محسني الهند سنة 1255هـ.

عندما تعرضت البصرة عام 1773م للطاعون الكبير، الذي فتك بأهلها، وأخذ يهدد المدن التي حولها، ومنها الكويت، وتبع ذلك حصار الفرس للبصرة عام 1775م، واستمر عاما ونصف العام حتى سقطت في عام 1776م، وهنا فكر الشيخ محمد بن أحمد بن رزق في الهجرة إلى البحرين، وكانت تطلق على الساحل الممتد من جنوب البصرة إلى ساحل عمان، واتخذ من مدينة الأحساء مستقرا له، مع العديد من الأسر التي قدمت معه، وأصبحت تلك المدينة مركزا لتجارته الواسعة، التي كانت تجوب الخليج إلى الهند.

وكعادة الشيخ محمد بن رزق في ممارسة هوايته المحببة له، وهي البذل والجود والإحسان إلى الفقراء، وبناء المساجد وحفر الآبار، إلا أن وجوده في تلك المنطقة أصبح خطراً عليه، كونه تاجر اللؤلؤ المميز في منطقة الخليج العربي، فأراد أن يحافظ على تجارته من أعدائه الذين أخذوا يهددون الأحساء والقطيف للسيطرة عليها، ما دفعه إلى التوجه إلى قطر مع أسرته، وابنه الوحيد الذي قد اشتد عوده، ومع أحبائه أيضا، واتخذ من الزبارة ملاذا له ولتجارته، وكان ذلك في عام 1776م.

وأخذ يبني له قصرا كبيرا، وافقه على تدبيره، في اتخاذ ذلك المنتجع وتعميره، وتسميته بالزبارة، فعمره هو وابنه، وحكما منه العمادة، وزيناه بالعدل في البداوة وذوي الحضارة، حتى ضرب المثل بمحاسن آثارهما، فالله أزان أيامهما بالسرور وسعة الرزق، فما أبهج هذه الأيام،

وأكثر خيرها وفرجها حتى أصبح يشتري ما يجمع من لؤلؤ قطر والبحرين.

وقد أحس الشيخ الكبير محمد بن حسين بن رزق بدنو الأجل، فحرص على تزويج ابنه الشيخ أحمد ، حتى تكون له ذرية تحمل ثقافة هذا الرجل وابنه وتساعده على حمل تلك الأمانة، وتحقق له ذلك بتزويج ابنه أحمد، إلا أن الله قد أخذ روحه الطاهرة قبل أن يرى أحفاده، فبقى الشيخ أحمد بن محمد بن رزق ليس له من مساعد، على كرمه إلا الكف والساعد، حتى بقى أكثر من عام، لا يألف المنام، حذرًا من معاديه، أن يقصر عن مكارم أبيه، فما زال يسدد ويقارب، يصنع سهام الرأي الثاقب، ليصيب بها أعلى المراتب، إلى أن نظرته السعادة، وصدرته على ذويها السيادة، ودقته على منابرها، وأقبلت إليه بحذافيرها ؛ فملأ اللها بعظم اللها ، وألقت إليه المروءة قلائدها ، وسلمت إليه الفتوة مقاليدها، فترقى إلى مقام لا يستطاع ارتقاؤه.

رزق الشيخ أحمد بن رزق بخمسة أبناء هم: محمد (1780م)، ويوسف (1785م)، وعبد المحسن (1787م) من زوجته الأولى، وهي من أقربائه، وخالد (1792م)، وعبد العزيز (1794م) من زوجته الثانية، وهي ابنة الشيخ إبراهيم العبد الرزاق، وأخت لعبد الوهاب وسالم وجميعهم ولدوا في الزبارة.

وفكر الشيخ أحمد بن رزق في فصل الزبارة عن بر قطر، بحفر خليج طوله ثلاثون ميلا، ولكن قومه لم يرضوا بذلك؛ لأنهم أهل بادية، ولا يستغنون عن رعي أغنامهم وإبلهم في بر قطر.

ومن طرائف ما وقع للشيخ أحمد بن محمد بن رزق، بأن غرق له مركب بجملة أموال لا تحتسب، وحين بلغه الخبر صبر، وما اكفهر، وما تضايق ولا حزن، وتبسم وما أبدى الضجر، بل زاد تبسمه، وتعاظم فضله وكرمه؛ وتزوج في الحال بكرا، ونشر موائد الكرم نشرا، وأظهر بشاشة وبشرا، فرأى أعداؤه منه العجب، وأقروا

له بعلو الرتب، والحق ما شهدت به الأعداء، فهو الكريم لأنه أعطى بلا إكداء، وقد وقعت له هذه الطرفة، وهو في الزبارة؛ حيث اشتد عوده، وكثرة أعداؤه.

ويروى أن والي بغداد سليمان باشا، أرسل نائبه علي باشا بحملة إلى منطقة الأحساء عام ١٧٩٨م، لإعادة سيطرة الدولة العثمانية على بعض المناطق التي تم فقدها، فاضطر إلى طلب المساعدة من الشيخ أحمد بن محمد بن رزق، وهو في الزيارة، فأرسل إليه الشيخ أحمد بن رزق الهدايا والعطايا التي لم يكن يتوقعها، أرسل إليه عشرين ألف دينار، أو ضعفها، وملابس من الحرير الغالي، وعقودا من اللؤلؤ، وجملة من الهدايا التي كان لها الأثر الكبير.

وتميزت مدينة الزبارة بأنها أصبحت منارة للأدباء والشعراء، وأهل العلم والدين والعلماء، وعندما قفل الوزير عن المحاصرة، لقلة الزاد وضعف المناصر وبلغ خبره الزيارة، وكانت

لأحمد ترجع الاستشارة، أمر أهلها بالارتحال، إلى جزيرة أوال، في البحرين، ليعيش ويستقر في قرية جو.

وعمر فيها الأراضي، سنة 1797م، وبنى فيها القصور، فكان تعميره بالطاعات والمراضي، ببناء المساجد وحفر الآبار، مستقرا بسفنه كبيرة الأحجام متنقلة بين موانى مدن الخليج العربي والبصرة وبلاد الهند، وغيرها من المدن.

وعندما تعرضت البحرين عام 1800 م للعدوان، وسيطر سلطان بن أحمد حاكم مسقط عليها ، وعين أخاه سعيدًا حاكمًا عليها من قبله، ارتحل الشيخ أحمد بن رزق إلى البصرة، حفاظًا على أمواله وتجارته، التي أدت إلى نمو موانئ العديد من مدن الخليج العربي، وخاصة مدينة البصرة، ونزل في قرية جردلان، وترك ابنه محمد في الكويت في المنزل الذي ولد فيه، وقال عنهم الشيخ إبراهيم بن فصيح الحيدري البغدادي في كتابه: (عنوان المجد في بيان أحوال بغداد

والبصرة ونجد)، ص 163 : من البيوت الرفيقة القديمة في البصرة بيت ابن رزق، وهو بيت مجد وفضل وتجارة وخير، وكانت لهم الصدقات الكثيرة، والآثار الحميدة، والثروة التامة، والعز الكامل، وقد صارت ديارهم بلاقع، وبقى الكامل محمد من الأخيار في الكويت، وهذه دلالة على اعتزار الشيخ أحمد بن رزق بوطنه الكويت الأصيل.

وعندما ارتحل الشيخ أحمد بن رزق إلى البصرة، وحط فيها رحله وبسط في سكانها فضله، تلقوه من بعيد، وجعلوا يوم قدومه يوم عيد واستنشقوا لما واجهوه أخلاقه، وأصابوا من بهجته وإشراقه، واستغنوا عن المصابيح منه بالطلاقة.

وتعتبر فترة مكوث الشيخ أحمد بن محمد بن رزق في جردلان في البصرة، من عام 1800م إلى وفاته عام 1809م، هي الأكثر استقرارا في حياته حيث استغل وجوده واستقراره فيها، إلى

تقريب العلماء ورجال الدين، وفي عمل الخيرات، من حفر الآبار وتعمير المساجد والمشاركة في بناء المدارس وفي الصرف على أوجه الخير والبر، وختم الشيخ عثمان بن سند الحديث عن أبناء الشيخ أحمد بن محمد بن رزق، وهم الإخوة الأشقاء على التوالي: محمد ويوسف وعبد المحسن، والإخوة غير الأشقاء، وهم خالد وعبد العزيز؛ حيث أبدع في الحديث عن سيرتهم والصفات التي اتصفوا بها.

وعندما علم الوالي العثماني في بغداد سليمان باشا بقدوم الشيخ أحمد بن رزق إلى البصرة، في مدينة جردلان، وجه إليه بأوامر شريفة وملابس فاخرة لطيفة، بأن يختار من البصرة أفضل دار، وأن يعامل كالملوك لا التجار، علماً بأن الشيخ أحمد بن رزق رفض الخروج على الحاكم ودولة الخلافة العثمانية، وكان داعماً لهم عند طلب الحاجة.

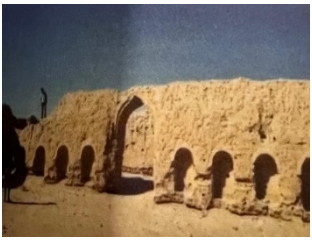

حطام قصر الشيخ أحمد بن محمد بن رزق في مدينة أم قصر الذي بناه عام 1802م

ولما نزل الشيخ أحمد بن محمد بن رزق في جردلان، عام 1800م، أفاض على سكانها موائد كرمه وإحسانه، وأخذ يقيم بنيانه، ويشيد قواعده وأركانه وصنع في هذا البنيان الآطام المحكمة وأعلى فيه الشرف وقومه، وعمر فيه مسجده، وأكرم ركعه وسجده، يقصده الناس من الآفاق، وتنهال إليه الرفاق للعبادة والارتزاق.

وسعى الشيخ أحمد بن رزق إلى بناء ميناء مجاور له في شمال الكويت ليكون مرسى لسفنه الكبيرة، التي كانت تجوب البحار، محملة بالناس والمواد كما بنى له قصراً في تلك المنطقة، حتى إن المنطقة سميت نسبة إلى قصره، المشهور بأم قصر، ولقد كان عام 1809 م هو عام وفاة الشيخ أحمد بن رزق وانتقاله إلى جوار ربه، ويعتبر من الأعلام الذين كان لهم الأثر الكبير في ازدهار منطقة الخليج العربي .